الادبي ، كما في الشعر الحديث والرواية الحديثة ، والى فن السينما التي تميزت بقدرة خاصة هي جعلها « الزمن ارحب باظهار احداث تجري في آن واحد وفي اكثر من مكان » اذ نجد ان البناء الحديث للعمل الابداعي اصبح يتضمن اكثر من زمان واكثر من مكان ، وافسح مجالا لان تجري الوقائع وتتحرك المخيلة وتهوم الاحلام وتتغير الشخصيات طورا بذات الزمان و(أو) المكان ، وطورا عبر عدة ازمنة و (أو) عدة أمكنة .

واذا ما اقتصرنا هنا على الفن التشكيلي ، فاننا قد رأينا ان الفنانين ، على تراوح في فهمهم لطبيعة العمل الفني ودوره ، يعمدون لاستقصاء عناصرهم السلبية لتطلعهم لرؤيا جديدة في الفن من خارج الارث الفني الاوروبي ، وبالذات من الفنون الشرقية ، المنسوجات اليابانية ، النسيج الفارسي ، المعمار الاسلامي ، الفن المصري القديم ، الفنون البدائية ، وخاصة الفن الافريقي والمكسيكي القديم . وهي الفنون التي استخدمت أنماطا من التعبير كان هدفها الاساسي « اعادة خلق الطبيعة دون نقلها » اي عدم اتخاذ موقف وصفي جامد من الطبيعة والحياة، وانما الفعل فيهما والتأثير في مجراهما .

ولو تفحصنا انماط التعبير عند الاطفال لوجدنا العديد من نقاط الالتقاء مع فنون طفولة الانسان الاولى ومع العديد من سمات الفنون الشرقية والفن المصري القديم بصورة او بأخرى ، وبالتالي وجدنا نقاط التقاء ما بين محاولات الاطفال التلقائية، والتجارب الفنية الحديثة الباحثة عن الرؤيا الارحب .. فالاطفال الذين غالبا يرسمون ما يعرفونه لا ما يرونه « يهملون » قواعد المنظور وقلما عرفوا البعد الثالث (الا في سني نمو متأخرة) تماما كما اهمل الفنانون الكبار عن وعي قواعد المنظور او حطموها منذ سيزان وجوهان وماتيس ... الخ .

وكما يميل الاطفال الى الشفوف ، اي اظهار ما يفترض ان لا يرى بصريا ، كاظهار السمك وهي تسبح ، او اظهار الاشخاص التابعين في بيوتهم ، او اظهار الحبوب في احشاء الطيور .. الخ ، وجدنا جوان جري وبراك وبيكاسو يحاولون ان يظهروا ما لا يظهر . لقد وجدنا الاطفال يحققون الرؤية الرحبة ، التي لا تنحصر في مكان واحد او زمان واحد ، حيث تنقل رسومهم عدة وقائع بذات الوقت دون العناية ان يكون ممكنا رؤية هذه الوقائع دفعة واحدة بصريا ، وهو ما فعله بيكاسو حينما كانت وجوه اشخاصه مرسومة من وضع جانبي وامامي مرة واحدة !

ان ما نعرفه من سمات لفن الاطفال ، من تخير للاوضاع النموذجية ، التسطيح ، التصفيف ، المبالغات ، الكتابة .. الخ ، قد رأينا تمثلات واعية له عند العديد من الفنانين المعاصرين والمحدثين مثل بول كلي ، ميرو ، شاجال ، دوفي ، سلفادور دالي وغيرهم . لذلك يمكن القول ، ان اطفال البقعة ، شأنهم شأن بقية الاطفال ، يقومون ضمن نظرتهم الخاصة للاشياء ، بما يحاول الفنان المعاصر ان يفعل اليوم ، اي استخلاص جوهر الشيء ، قانونه العام ، ويستبعد الامور العارضة، اي اعادة بناء الاجسام — الاشكال ضمن منظوره الخاص . فالرسم عند الطفل ليس تمثلا لما تراه العين في الطبيعة ، اي الحقيقة البصرية ، وانما هو اختصار وتشذيب للواقع ، مضمنا ذلك بموقفه الخاص ، الاحتجاج عليه ، اعادة صياغته برؤيا الطفولة واحلامها وامنيتها ، لذلك نشهد ، حتى في رسومهم التي تتناول موضوعا واقعيا ، كالقرية، الريف ، المخيم ، البيت ، عناصر جديدة لا تنتمي للواقع العيني ، المنظور ، تتمثل في اعطاء هذا الواقع صورة اجمل ، مزخرفة ، نظيفة ، كأنما يعكسون أمنية تحققها كما بنوها في خيالاتهم . هكذا رأينا آمنة عبدالغفار ترسم قريتها فرشقت فيها حسها الزخرفي والجمالي الخاص ، وهكذا رأينا نوال محمد ابراهيم ترسم غرفتها كما تتمنى ، مبلطة نظيفة ، تتوسطها مائدة خضراء ، وفوقها آنية تحمل زهرة منفردة ، لكنها كافية ، وتزيد لنفسها مقعدا ملونا . وهكذا يرسم الطفل النازح ، الفدائي بشاربين ولحية مسترسلة ، كأنما يريد ان يعمم ما هو خاص في رؤيته ، في حبه وعشقه لنمط جمالي ما .

الاطفال ، وكما يحاول الفنانون منذ زمن ، لا يرون اية حاجة لرصف كل المواصفات الشكلية لشيء ما . انهم يبحثون عن خطوطه المؤثرة ، الموحية بجوهر الجسم ، بطبيعته ، « بنواياه » . لذلك تبدو اشكال رسومهم حية ، مفكرة ، مريدة ، تشف عن مواقفها ، عن نواياها . لننظر الى رسم خطه الطفل يعقوب محمد ١٣ سنة ، وهو يمثل جملا . ثمة شيء يشعرنا ان الجمال تضحك ، تسخر منا بصورة ما . انها اليفة بصورة مميزة ، لا نخطئ اذا امتلكتنا مشاعر الحنو على هذه المخلوقات